تجليات الإنصاف في شعر صدر الإسلام

مراد زعباط

كلية الآداب و اللغات جامعة قسنطينة 1

ملخص البحث:

يتناول هذا المقال بالدراسة ظاهرة الإنصاف في الشعر العربي ويرصد تجليات الإنصاف في شعر غزوات النبي (صلى الله عليه وسلم) وشعر فتوح صدر الإسلام.

ثم تحاول الدراسة التعريف بالمنصفات والكشف عن أهم الدوافع النفسية والخلقية التي جعلت الشاعر يتحلى بهذا الخلق السامي، والتطرق إلى تأثير الدين الجديد والحوادث التاريخية في هذا العصر على شعر الإنصاف.

وقد وردت في متن البحث شواهد شعرية يشيد فيها الشعراء بقوة أعدائهم فينصفونهم في النصر والهزيمة و يتجلى في شعرهم الإعجاب بالخصم فيعترفون بالحقيقة ويصفون الوقائع دون تزييف أو تغيير.

Résumé :

cet article étudie le phénomène de l’équité dans la poésie arabe. Il appréhende ses manifestations durant les conquêtes du prophète MOHAMED (que le salut soit sur lui) et lors des premières années de l’islam.

Cette recherche tente de présenter cette impartialité et d’identifier les principales motivations psychiques et éducatives qui poussent le poète à adopter cette vertu et

aborder les effets de la nouvelle religion ainsi que le fait historique pendant cette ère sur la poésie de l'équité.

Au cours de cette étude il est apparu des témoignages poétiques où les poètes apprécient la force de leur ennemi ce qui les conduit à reconnaitre la vérité et décrire les circonstances sans aucune falsification ou modification.

مقدمة:

كانت أيام العرب في الجاهلية وصدر الإسلام إلى عهد بني أمية ملاحم عظيمة وحروبا دارت رحاها فكانت لهوتها جيوش القبائل وجيوش الفاتحين وثقالها جزيرة العرب وما جاورها من بلدان، فتصدى لها الفرسان بالشجاعة والإقدام، باذلين مهجهم في سبيلها، فينتصر فريق وينهزم فريق وقد يتعادلان فلا يكون غالب أو مغلوب .

وقد سجل الشعراء أحداثها وتفاعلوا مع نتائجها بقصائد تهلل بالنصر، وتزدري المغلوب وتصطنع الحجج لتبرير الهزائم، وأشعار تنضح بالحقد الذي تغذيه العصبية القبلية وطلب الثأر فتعمي الشعراء عن الإنصاف في القول وإقرار الحقائق دون تزييف أو تغيير.

وكان ولاء الفارس للقبيلة فوق كل ولاء، وتعصبه لها أقوى من كل تعصب في مواقف الغيِّ والرشاد فيقف دونها يرد عنها كيد الأعداء ويبذل حياته في سبيلها مخافة أن يلحقه العار، ويكره نفسه على اقتحام الوغى طمعا أن تُحْمَدَ أو تستريح .

إن التعصب الأعمى للقبيلة حاد بالشعراء عن طريق الإنصاف، " ولم ينج من الانقياد لنزعة العصبية إلاَّ قلة من الشعراء ، بل أن هؤلاء لم يبرءوا تماما من أثر العصبية وإنَّما كانت أصواتهم خافتة بالقياس إلى شعراء آخرين."[1]

إن شعر الإنصاف يتسم بالقلَّة ومواضيعه محدودة في الأدب العربي، وترجع هذه الندرة إلى صعوبة التحلِّي بهذا الخلق الكريم وسط النتائج الوخيمة للحروب التي لا تبقي ولا تذر، فتثكل النساء ويتيم الأولاد وتزرع الضغائن والأحقاد والتعصب الأعمى الذي يحجب عن الشعراء صور البلاء والشجاعة التي يتميز بها العدو، فينصرف إلى الظلم والبغي ومحاولة الانتقاص من شأن الخصم فيفخر بنفسه وقومه ويغيب الإنصاف.

و من الطرافة أن نجد في هذا الجو المشحون بمشاعر الحقد والتعصب شعراء حفل شعرهم بالمشاعر الإنسانية الراقية، فيعترفون للعدو بالشجاعة وحسن البلاء في الحروب، ويعترفون بهزيمة أقوامهم إن هزموا، وبفرارهم من وجه الأعداء، إنهم " جماعة من الشعراء لم يندفعوا في تيار المبالغة والمغالاة في تصوير حال الأعداء، بل كانوا معتدلين منصفين، فوصفوا في قصائدهم ما حدث للفريقين دون تحيز لأحدهما وقد اشتهرت هذه القصائد، وكان لها تقدير خاص حتى سميت باسم " المنصفات " وأظهر شيء أن الشاعر كان يحكي فيها ما حدث لقومه في مقابل ما حدث للأعداء، ويتحدث عن الجانبين بما يصف الحقيقة والواقع، وقد يمدح فيها العدو بالقوة والشجاعة."[2]

التعريف اللغوي للمنصفات:

لقد جاء في لسان العرب أن النَصَفُ والنَصَفَةُ والإِنْصَافَ : إعطاء الحَقِّ وأَنْصَفَ الرجل، أي عَدَل

قال ابن الأعرابي: أَنْصَفَ إذا أخذ الحقُّ وأعطى الحقَّ.

والنَّصَفُ: الإِنْصَافُ، قال الفرزدق:

وَلَكِنَّ نِصْفًا لَوْ سَبَبْتُ وسَبَّنِي بنو عبد شَمْسٍ من مَنَافٍ وهَاشِمِ

ويقال: أنْصَفَهُ من نفسه، وانْتَصَفْتُ أنا منه وتَنَاصَفُوا، أي أنْصَفَ بعضهم بعضا من نفسه.

والنِّصِفُ بالكسر: الانْتِصَافُ، وقد أَنْصَفَهُ من خصمه إِنْصَافًا. [3]

ونجد أن الاشتقاق من الجذر نَصَفَ في جل المعاجم يأخذ معنى الحق والعدل والإنصاف.

التعريف الاصطلاحي للمنصفات:

وضع الطبرسي حدا للمنصفات، إذ قال بعد أن شرح أبياتا للعبّاس بن مرداس: "وهو من باب التناصف، وللعرب قصائد قد أنصف قائلوها فيها أعداءهم، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم، فيما اصْطَلَوهُ مِنْ حَرِّ اللقاء، وفيما وصفوه من أحوالهم في إمحاض الإخاء، قد سمّوها المنصفات ." [4]

ونجد أن تعريف الطبرسي للمنصفات لا يحدد معالم هذا الشعر ويجليه فيكون جامعا مانعا وإنما نراه مقتصرا على بعض الجوانب؛ حيث أشار إلى القصائد التي أنصف قائلوها أعداءهم وأهمل المقطعات والأبيات المفردة ولو قال الأشعار المنصفة كما جاء في مقولة الجاحظ [5] لكان التعريف أشمل وأعم، كما انفرد الطبرسي بذكر الإنصاف في إمحاض الإخاء ولا شك أن هذا النوع ليس من التميز والطرافة في شيء لأن إنصاف الأحبة لا يحتاج من الشاعر مجهودا نفسيا كبيرا كالإنصاف في الحرب، وإذا استثنينا عبد المعين الملُّوحي الذي وافق الطبرسي فيما ذهب إليه في كتابه المنصفات وأورد نماذج من شعر الإنصاف في هذا الباب نجد أن أغلب الباحثين لم يلتفتوا إلى النوع الثاني من أنواع الإنصاف وهو إمحاض الإخاء الذي ينصف الشاعر فيه أحبته، واهتموا بالنوع الأول الذي ينصف الشاعر فيه عدوَّه لطرافة هذا الشعر ومخالفته للمتوقع المألوف ولتنوعه بتنوع الدوافع والمواقف التي قيل فيها. وقد أغفل الخالديان أيضا ذكر القصائد التي قيلت في إمحاض الإخاء، وعلى كثرة القصائد المنصفة في الشعر العربي فإنهما اقتصرا على

ذكر ثلاث قصائد فقط لشهرتها إذ قالا: " ذكر الرواة أن منصفات أشعار العرب ثلاثة أشعار، فأوَّلها قصيدة عامر بن مَعْشَربنِ أسحم ابن عديٍّ، والمنصفة الثانية لعبد الشارق بن عبد العزَّى الجُهني، والمنصفة الثالثة للعبَّاس بن مرداس السُلَّمي [6].

إن تعريف الطبرسي كان مرجعا لجل الباحثين فلم يحيدوا عنه بل نجدهم ينسجون على منواله في أغلب التعريفات التي تناولت شعر الإنصاف فنجد في معجم المصطلحات العربية أن " المنصفات هو لقب للقصائد الجاهلية التي لم يبدِّل قائلوها الحقائق فيها، فيعترفون بهزيمة أقوامهم إن هُزموا، وبفرارهم إن ولوُّا الأدبار، ولا يبخلون على أعدائهم بوصف شجاعتهم وبلائهم في الحروب." [7]
فإيراد الحقائق والاعتراف بالهزيمة ووصف شجاعة الخصوم وبلائهم أهم ركائز الإنصاف التي إذا توفرت في قصائد ومقطعات فإنها تلقب بالمنصفات بغض النظر عن العصر الذي قيلت فيه خلافا لما أورد صاحبا معجم المصطلحات العربية.

ويرى محمود محمد شاكر أنها ليست مدحا خالصا وإنما هي وصف أقرب ما يكون إلى الواقع لما اصْطَلاَهُ الفريقان، " فالمُنْصِفَةُ: هي القصيدة التي يمدح فيها الشاعر أعداءه، ويذكر ما أوقعوه بقومه، وما أوقع قومه بهم إنصافا وعدلا." [8]
ويفصِّل علي الجندي في هذا الرأي موافقا "محمود محمد شاكر" فيقول: " فإذا ذكر ما أوقعه قومه بالأعداء، ذكر ما حدث لقومه من الأعداء، وإن وصف بأس قومه وقوتهم وبطولتهم، وصبرهم وثباتهم وأسلحتهم وما قاموا به من أعمال وأمجاد، وصف الأعداء كذلك من هذه النواحي، فكان الشاعر يتحدث في ذلك بما يقتضيه الحق والإنصاف، ولذلك سميت هذه القصائد< المنصفات > لأن الشاعر فيها ينصف الأعداء ويعطيهم ما يستحقون." [9]

وقد رأى شوقي ضيف أنَّ الشاعر إذا اعترف بهزيمة قومه وشجاعة أعدائه ووصف الحرب بواقعية فقد أنصف، "إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إذا هُزموا،

وبفراره إن ولَّى الأدبار ونكص على أعقابه، وفي أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلائهم في الحروب، ولهم في ذلك قصائد تلقب بالمنصفات، ... وجاءهم ذلك من أنهم لا يبدِّلون في الحقائق ولا يعدِّلون في علاقاتها ومعانيها، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم إزاءها." لكن الشاعر المنصف وإن ضبط انفعالاته تجاه عدوِّه وكظم غيظه وحقده فإن انفعالات أقوى كفيلة بأن تجعله يسلك سبيل الإنصاف وقد تتنوع بين إعجاب بالخصم، وحزن وأسى لمقتله أو رفض لما جرَّته عليهم الحرب من مآسي.

وقد أشار كل من غازي طليمات وعرفان الأشقر إلى المنصفات في باب الفخر فهي تتناسب معه عكسيا حيث أن صوت الإنصاف يعلو متى خَفَتَ صوت الفخر لأن الشاعر حينئذ يخرج من دائرة الذات ليعبر عن أحاسيس ومكنونات عدوِّه فيصوغ شعرا ينضح بالحكمة "وربَّما كانت المنصفات أروع ما في هذا الشعر، وأحفله بمشاعر إنسانية راقية، وأبعده عن الحقد والكراهية، في هذا النمط من الشعر تخفت أصوات الفخر، وتنسرب قصة الأخذ بالثأر في منسرب إنساني وتضعف العصبية القبلية، وتمازج العداوة الصداقة، والاحتقار الإكبار، ويصوِّر العدو اللَّدود بصورة الصديق الودود ويضع الشاعر نفسه موضع خصمه، فيعبر عمَّا في نفس الخصم، فإذا الذي يحسُّه الفريقان واحد وإذا العداوة التي تلمع في الظُّبا والأسنة برق خلّب، يومض ثم ينطفئ."[10] وقد ركز الباحثان في هذا التعريف على الجانب النفسي لتفسير معنى الإنصاف فالشاعر المنصف عندهما هو الذي يضع نفسه موضع خصمه، فيعبر عن معاناته مبرزا القيم الجميلة التي يخفيها قبح الحرب من بعد عن الحقد والكراهية وتحول الاحتقار إلى إكبار، وتعبير عن مشاعر الخصم ومشاركة لأحاسيسه.

ولا يحيد هلال جهاد في تعريفه للمنصفات عن هذا الرأي باعتبار الحرب من العوامل الأساسية للتواصل بين الذوات، فالمنصفات هي تجلّ للجانب الإنساني

وانتصار على قبح الحرب التي تترك آثارها النفسية المدمرة لدى طرفي الصراع، فيتفهم معاناة الخصم ويعبر عنها لأنها معاناته فالمنصفات عنده هي "القصائد التي حاول فيها بعض الشعراء أن يتفهموا المأزق الوجودي الرهيب الذي تعاني منه أطراف الصراع، وأن يعيروا العدو الذي عادة ما يخضع للبطش الدموي لسانا يعبر فيه عن ذاتيته وألمه ومعاناته. "[11]

من كل ما سبق نستنتج أن الأشعار المنصفة هي التي توخى فيها الشعراء موقف الحياد في الحكم بين قبيلتهم وبين أعدائها أو بينهم وبين خصومهم، يصفون فيها الوقائع وصفا يحمل مشاعر الإعجاب بالخصم وشجاعته والأسف والأسى لمقتله، وقد يورد الشاعر هذا الإنصاف مفتخرا بنفسه، فقوته من قوة أنداده، أو مادحا معجبا بشجاعة خصومه، أو معتذرا من فرار مبررا هروبه من عدوه، فإذا حمل الشعر إحدى هذه المعاني جاز تصنيفه في خانة الأشعار المنصفة سواء كان بيتا مفردا، أو مقطعة ، أو قصيدة.

دوافع الإنصاف في الشعر العربي:

إن أهم ملاحظة نسجلها على شعراء المنصفات هو عدم رضاهم على نشوب الحرب، أو عدم الرضا على ما آلت إليه من نتائج ، وتغلب الحالة الشعورية الأولى على الشعراء الذين اصطلوا بنار الحرب بين قبائل تربط بينها وشائج القربى فيسعون جاهدين إلى الصلح بين الفريقين والنصح لهم ، لكن الأمور تتفاقم وتستعر الحرب وتحصد هامات الأبطال من كلا الفريقين، وتشبع السباع والجوارح من جثث القتلى وتبكي نساء القبيلتين، ويصبر كل فريق فيتذكرون الأرحام، ويوقفون القتال.

إن الشاعر الذي فجع في قبيلته وأبناء عمومته لا يمكن أن ينحاز إلى قبيلته لأن الموقف يفرض عليه التحلي بروح الإنصاف.

أما الحالة الثانية، نجد أن الشاعر كان حريصا أشد الحرص على الإيقاع بعدوه لكنه يفاجأ بخصم قوي، وأبطال مستعدِّين للحرب، يردُّون الصاع بالصاع، ولا تنجلي الهجمة عن قتيل إلاَّ بشق الأنفس فيعترف بما لاقى من معاناة مبرِّرا موقفه ومعترفا بقوة خصمه وبسالته في الحروب.

أما إذا انهزمت قبيلة الشاعر واندحرت أمام الخصوم فإن الشاعر يصور استماتته في الدفاع عن فلول المنهزمين، ويصبُّ غضبه على قبيلته التي آثرت الهروب على الاستبسال مبررا هزيمته بقوة الخصم وكثرة عدده وتصميم أفراده.

إن عدم الرضا عن نشوب الحرب أو عدم الرضا عن نتائج هذه الحرب من أهم الدوافع التي تجبر الشاعر على الوقوف موقف الإنصاف بالإضافة إلى عوامل أخرى أهمها:

الدافع الخلقي:

إخلاص الشاعر للقيمة الأخلاقية التي كانت سائدة في المجتمع العربي فنجده يمدح خصمه أو يذم قبيلته ويفخر بغيرها لأنه ينتصر لترسبات الوعي الأخلاقي والقيم التي يتسم بها الشعراء الفرسان والمجتمع العربي بصفة عامة من نجدة وكرم وشجاعة وطيب خلق وحفاظ على الجار، وتقدير لهذه الصفات وإنصاف كل من يتميز بها، لقد كان " الإنصاف الذي التزم به الفرسان جانبا أخلاقيا آخر تميزت به الروح العربية، وتلمست خصائصه في سلوكهم مع أعدائهم، واعترافهم بقدرتهم على الرغم من كل الأسباب التي تفرض عليهم الظهور بغير هذا المظهر، ولكن التربية الأصيلة والوفاء الإنساني والثقة الكبيرة بالنفس كانت تفرض عليهم هذا السلوك الذي ظل علامة من علامات مجدهم وعزتهم ووفائهم."[12]

لقد كانت هذه الاستعدادات منطلقا إلى سلوك أسمى جعل الشاعر يصدق مع نفسه ويكون منصفا حتّى مع أعدائه، فيصف ما حدث للفريقين بكل موضوعية وإنصاف، ولم يكن هذا الاعتراف من"باب التفاخر والتعالي أو التوصل إلى إثبات

شجاعة الفارس، وإنما هو تقدير لمفهوم الشجاعة وإعجاب بهذه الصفة المحببة إلى نفوسهم دفعتهم إلى الإيمان بكل سبب يتصل بها ، فهم يدركون أن الموت يكمن لهم في رأس كل ثنية، وعند كل ثغر ولكن ذلك لم يقعد بهم عن السير، ولم يمنعهم عن الاستمرار في الطريق الذي رسموه لهم."[13]

وقد لخص سويد بن أبي كاهل هذه الصفات المحببة إلى نفوسهم في مدحه لقومه بقوله:[14]

بُسطُ الأيدي إذا ما سُئلوا نُفُعُ النائِل إن شيء نَفَعْ
مِنْ أُناسٍ ليسَ من أخلاقهم عاجلُ الفُحشِ ولا سوءُ الجزَعْ
عُرُفٌ للحَقِّ ما نعيا به عند مُرِّ الأمْرِ ما فينَا خَرَع
حسنوا الأوجُهِ بيضٌ سادة ومراجيحُ إذا جدَّ الفزَعْ
وُزُنُ الأحلامِ إن هم وَازَنُوا صادقُوا البأسِ إذا البأسُ نَصَعْ
ولُيُوثٌ تُتّقى عُرَّتُهَا ساكنوا الريح إذا طار الفزعْ

تذكر صلات القربى والرحم:

إن من أهم العوامل التي تثني الشعراء عن التمادي في زهوهم وخيلائهم، وإلغائهم لِحَقِّ الطرف الثاني في نيل أحكام منصفة هي النتائج المروعة للحروب التي تحمل معها الموت والدمار فتثكل النساء ويتيم الأولاد وتزرع الضغائن "وبعد الاقتتال كانوا يندمون، ويبكون قتلاهم ، ويأسفون على الصلات التي تقطَّعت والسلام الذي غالته الحرب، والقرابة التي غدت عداوة، حينئذ تنقلب المفخرة بالمجزرة إلى فاجعة موجعة"[15] فترق القلوب ويتذكرون أواصر القربى ويوقفون القتال. ولأن الشاعر هو لسان القبيلة الذي يتغنى ببطولاتها ويمجد انتصاراتها لا يجد أمام هذه الفاجعة التي ألمت بقبيلته وأبناء عمومته إلا سلوك سبيل الإنصاف في الحكم بين الفريقين ووصف الوقائع بكل صدق وواقعية وقد يُضمِّن قصيدته عتابا لمسعري الحرب من الطرفين.

يعبر البحتري عن هذا المعنى ذاكرا صلح بني تغلب فيقول: [16]

وفرسانِ هَيْجاءٍ تَجِيشُ صُدورُها بأحقادها حتى تضيقَ دُرُوعُها
تُقتِّلُ من وِترٍ أعزَّ نُفوسِها عليها بأيْدٍ ما تكادُ تُطيعها
إذا احْتَرَبتْ يوْمًا ففاضَتْ دماؤُها تَذَكَّرَتِ القُربى ففاضتْ دموعها

وهذا حلحلة بن قيس الكناني ينصف أعداءه ويأسف على النتائج التي آلت إليها إحدى الوقائع التي شارك فيها يقول: [17]

فبتنا على لحم من القوم غُودِرَتْ أسنّتنا فيه وبَاتُوا على لَحْمِ
وأصبح يَبْكِي من بَنِين وإِخْوَةٍ حِسَانُ الوُجوهِ طيِّبي الجِسْم والنَّسْمِ
ونحن نَبْكِي إخوةً وَبنيهم وليسَ سَواءَ قَتْلُ حقٍّ على ظلْمِ

إنصاف الخصم سبيل إلى الفخر:

إن لجوء الشاعر إلى تصوير قوة الأعداء وشدة مِرَاسِهم قد يكون سبيلا إلى الفخر الذاتي أو الفخر بمآثر القبيلة وإقدامها في الحروب، ورغم أن حقيقة صمود هذا القِرن تثير الإعجاب وتجبر عدُّوه على احترامه حيًا وميتا، لكن محاولة الشعراء أن يثبتوا أن هذا الانتصار ليس محض الصدفة ولم يأت على حساب قِرن مغمور، يهدف الشاعر من خلالها إلى الفخر بنفسه، وهذا ما يتجلَّى في منصفة "زاهر أبو كرام التّيميُّ " لَّما دعاه تيمٌ فارس بني يَشْكُرْ إلى البراز فقتله ثم أعظم شأنه في قصيدته لحاجة في نفسه تبينها هذه الأبيات حيث يقول: [18]

للّه تيمٌ أيُّ رُمْحِ طِرادِ لاقى الحِمَامُ به ونصلِ جلادِ
ومِحَشٍّ حرْبٍ مقدمٍ مُتعرِّضٍ للموت غير معرَّدٍ حيَّادِ
كالَّليثِ لايثنِيهِ عَنْ إقدامهِ خوفَ الرَّدى وقعاقعِ الإيعاد
مَذِلٌّ بمهجته إذا ما كذِّبتْ خوف المنيَّة نجدةُ الأَنْجَادِ

وقد أشار شارح ديوان الحماسة إلى نية الشاعر وهو يمدح خصمه ويثني عليه بهذه الصفات فيقول:

"أخذ أبو كِرَام يُقيمُ أمره ويعظم شأنه، لأن ثناءه عليه، وإكباره لمكانه راجعٌ إليه، إذ صار قتيله"[19]

ويتجلى لنا الفخر فيما تبقى من أبيات القصيدة فقد كاد يلغي روح الإنصاف التي تجلت في الأبيات الأولى التي مدح فيها غريمه فهو لا يبدي أسفا على مقتله، حيث يقول:[20]

ساقيتهُ كأْس الرَّدى بأسنَّةٍ ذُلُقٍ مؤلَّلة الشِّفارِ حدادِ
فطعنته والخيل في رهَج الوغى نَجْلاءَ تنضحُ مثل لوْنِ الجادِي
فهوى وجائشها يفور بمُزبدٍ من جوفه متدارِكِ الإزبادِ

ونجد أبياتا لشعراء آخرين تحمل الكثير من صور الأسى على العدو القتيل، فقد يجد الشاعر نفسه مضطرًّا إلى القتل بعد أن أجبرته الظروف على خوض الحرب، كحال "حرب بن مسعر" الذي يقول إذ قتل عدوَّه:[21]

وأوْجرتهُ لدْن الكعُوب مُقوَّمًا فخرَّ صريعًا لليدينِ وللفمِ
وغادرتهُ والدَّمعُ يجري لقتلهِ وأوْداجُه تجري على النَّحرِ بالدَّم

ويفتخر عنترة بقتله لفارس مدجَّج كامل العدَّة ولشدة بأسه هابه الكماة فانبرى له الشاعر وجادت كفه بطعنة عاجلة هتكت درعه، ونجد أن الشاعر لم يكتفِ بمدح الصفات الحربية للفارس، بل مدح بعض الصفات التي ليست لها علاقة بالحروب، فيصفه بالكريم الماجد، وبالفحل حليل الغانية أو من ذوي النعماء- أبيض بادن – إذ يقول:[22]

ومدَجَّج كره الكُماةُ نزالهُ لا ممعنٍ هربًا ولا مُسْتَسْلِمِ
جادتْ لهُ كفِّي بعاجلِ طعْنةٍ بمُثقفٍ صدْقِ الكعُوب مُقوَّمِ
فشككتُ بالرمْحِ الأصمِّ ثيابهُ ليْسَ الكريمُ على القنا بِمُحرَّمِ

ويقول أيضًا :[23]

وحليلُ غانية تركتُ مجَدَّلاً تَمْكُو فريصتهُ كشِدقِ الأَعلَمِ

ويقول: [24]

فلرُبَّ أبلجَ مثلِ بعلكِ بادنٍ ضخمٍ على ظهرِ الجوادِ مُهَبَّلِ
غادرتُهُ متعَفِّرا أوصالهُ والقومُ بين مُجَرَّحٍ ومُجدَّلِ

الروح الإسلامية وأثرها في شعر الإنصاف:

إذا كان الإنصاف في الجاهلية، يصدر عن روح متشبعة بالقيم الحميدة المعدودة في ذلك العصر كالنجدة، والوفاء، والكرم، فإن الطابع الجديد لشعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام والعصر الأموي قد تأثر بالدين الجديد الذي أحدث ثورة في القيم وغيَّر الكثير من المفاهيم الجاهلية من ظلم واستبداد وطغيان وباطل إلى عدل وسماحة وحق وفضيلة، فتبدلت الحال على الشعراء المخضرمين وأحاطت القيود برقابهم فلم يستطيعوا النظم على عادة الجاهليين.

يقول أبو خراش الهذلي: [25]

فليسَ كعهدِ الدَّار يا أمَّ مالكٍ ولكنْ أحاطتْ بالرقابِ السلاسلُ
وعادَ الفتَى كالكَهلِ ليسَ بقائلٍ سوى العدْلِ شيئًا فاستراحَ العواذِلُ

فلم تعد للشاعر حرية مطلقة كما كان الشأن في الجاهلية، بل أصبحت حرية مقيدة بأوامر الدين الجديد ونواهيه. وليس هذا فحسب، فهي حرية في حدود حرية الآخرين، فلا نهب ولا سلب، ولا تفاخر بالأحساب والأنساب.

ورغم الانتصارات الكاسحة التي تغنى لها شعراء صدر الإسلام في قصائدهم ومقطعاتهم فقد تجلّت في شعرهم الواقعية والصدق، ولم يهملوا الدور الذي لعبه العدو في المعارك، فقد وصفه الشعراء مع الثناء على كرم المحتدّ، والصولة في الوقائع، والثبات في المعارك.

شعر الإنصاف في عصر صدر الإسلام:

لقد كانت أيام العرب في صدر الإسلام وقائع مظفَّرة، كتب النصر فيها دائما للفاتحين المسلمين، رغم التضحيات، وكان للعقيدة أثر عظيم في قناعة الفاتحين،

فاقتحموا ميادين الوغى شعارهم النصر أو الشهادة، ورغم الانتصارات الكاسحة التي تغنى بها الشعراء في قصائدهم ومقطَّعاتهم فقد تجلَّت الواقعية والصدق في أشعارهم، ولم يهملوا الدور الذي لعبه العدو في المعارك.

وكان شعرهم نفثات متسارعة الأنفاس يفرغ فيها الشاعر ما يجيش في صدره من أشعار بعد أنطقتهم الأهوال التي لاقوها في سبيل الفتح" فهذه الشعوب لم تذعن إلَّا بعد خطوب حربية شديدة، وبعد أحداث عسكرية جسام، فقد ظلت تقاوم حتى قهرتها قوة المسلمين وتحولت بلدانها إلى ساحات حربية كبيرة، كان النصر فيها دائما حليف المسلمين لصبرهم في القتال وصدقهم في النزال. "[26]

وقد حملت لنا كتب الأدب و المغازي والسير والفتوح معظم الأشعار التي قيلت في هذه المرحلة من الزمن وقد قسمتها إلى مرحلتين تبعا للأحداث التي ميزت كل مرحلة.

الأشعار المنصفة التي قيلت في غزوات النبي (صلى الله عليه و سلم):

لقد كان للحرب الدائرة بين المسلمين والمشركين دور كبير في ظهور أشكال أخرى من الصراع، ونعني الصراع الشعري بين شعراء مكة والمدينة " الذي اتخذ في أكثر الأحيان صورة المناقضات الشعرية، وفي بعض الأحيان صورة المراجزات وقد تميزت المناقضات الإسلامية بسمو الموضوعات التي عالجتها، ونبل الغاية التي قصدت إليها، فموضوعاتها هي الإسلام ودعوته، وغايتها إخراج الناس من الظلمات إلى النور."[27] وقد وقف كل فريق ينافح عن عصبته ودينه ويعدد مثالب خصومه فكان سلاح الشعر أشد إيلاما وأبعد أثرا في النفوس، ورغم أن أشعار المشركين لا تخرج عن النموذج الجاهلي فإننا نجد فيها نماذج من الإنصاف الظاهر فيه إقرار بتفوق المسلمين وإعجاب بشجاعتهم يقابلهم الأثر الديني الواضح في أشعار المسلمين مستمدين القيم المثلى من القرآن الكريم وتوجيهات النبي (صلى الله عليه وسلم) وهذه نماذج من الأشعار المنصفة لطرفي الصراع.

الإنصاف عند شعراء المسلمين:

لقد تميز الشعراء المسلمون بالصدق في وصف أحاسيسهم، وبالواقعية في التعبير عن أحوالهم في السلم والحرب، وكانوا في ردِّهم على شعراء المشركين منصفين بعيدين عن الفحش والإقذاع في الكلام، وجاءت أشعارهم في قالب إيماني غرضه المنافحة عن الرسول(صلى الله عليه وسلم) والدعوة إلى الدين الإسلامي ونشر تعاليمه، ونبذ الكذب وتقرير الحقائق بصدق، فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: " إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه". [28] •

وقد أمر الله تعالى المسلمين بالعدل في الناس وإنصافهم رغم البغض والعداء فيقول جل جلاله " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)" [29]

ويتضح لنا الأمر إذا اطلعنا على معنى الآية حيث يقول ابن كثير " لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحَدٍ صديقا كان أو عدوًّا، ولهذا قال: "اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" أي عدلكم أقرب للتقوى من تركه [30] "

وهذا ما جعل الشعراء المسلمين ينتهون إلى حدود الصدق والعدل في إيراد الحقائق ويذكِّرون بها أعداءهم إذا تمادوا في غيِّهم وكذبهم، رغم الصراع المحتدم الذي يخول لهم استعمال كافة الأساليب للنيل من الخصم وقد تجلى هذا في قول حسان بن ثابت : [31]

وخَبِّر بالذي لا عيب فيهِ بصدْقٍ غيرَ إخبارِ الكذُوبِ

ويرى العسكري أن " استثناء الله عز وجل في أمر الشعراء يدل على أن المذموم من الشعر إنما هو العدول من جهة الصواب إلى الخطأ، والمصروف من

وجهة الإنصاف والعدل إلى الظلم والجور، وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذم."[32]

وقد عبر حسان بن ثابت عن هذا الرأي أيضا مستمداً معانيه من موقف الإسلام من الشعر فقال:[33]

وإنَّما الشِعرُ لُبُّ المَرْءِ يعْرضُهُ على المجالسِ إنْ كَيسًا أو حُمْقَا
وإنَّ أشْعرَ بَيْتٍ أَنْتَ قائِلُهُ بيتٌ يُقالُ إذا أنشدتهُ صدقَا

لكن رغم الإنصاف الظاهر في أشعارهم فإنهم لا يداهنون إذا تعلق الأمر بالعقيدة فالمسلمون يحملون لواء الإيمان والمشركون يحملون لواء الكفر، فهيهات أن يعطي كعب بن مالك السواء في هذا الجانب رغم إنصافه للمشركين في غزوة أحد، إذ يقول في آخر القصيدة:[34]

ليسَا سواء وشتَّى بين أمرهما حزبُ الإلَهِ وأهلُ الشِركِ والنُصُبِ

لكن هذا لم ينقص من قيمة منصفتيه فرغم آلام الحزن على شهداء أحد، وفخر شعراء المشركين نجده متزنا راجح العقل، يصف تتابع الأحداث بكل صدق وواقعية وإنصاف.

قال كعب بن مالك في يوم أحد:[35]

سائل قريشا غداة السفح من أحدِ ماذا لقينا وما لاقُوا من الهربِ
كنَّا الأُسود وكانوا النِّمر إذ زحفوا ما إن نراقب من إلٍ ولا نسبِ
جالُوا وجُلْنَا فما فاءُوا وما رَجَعُوا ونحنُ نَثْفِنُهُمْ لم نألُ في الطَّلبِ

وقال في منصفته العينية مجيبا هبيرة بن أبي وهب واصفا أحداث المعركة بكل صدق مثنيا على قوة الأعداء متعجبا من كثرة عددهم :[36]

فجئنا إلى موجٍ من البحرِ وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنعُ
نغاورهم تجري المنيَّة بيننا نشارعهم حوضَ المنايا ونشرعُ
تهادَى قِسِيُّ النبع فينا وفيهمُ وما هو إلَّا اليثربيُّ المقطَّع

وينتقل الشاعر من وصف الصراع والحرب إلى وصف نتائج المعركة ونجد أنه لا يجانب الإنصاف في هذا الموقف أيضا فقد نال كل فريق من عدوه وعركتهم رحى الحرب واكتسح الشر حلم الفريقين في الغنم والسلامة ولم يبق لهم إلى التعزي بالصبر، قال كعب : [37]

فنلنا ونال القومُ منا وربّما فعلنا ولكن ما لدى الله أوسعُ
ودَارَتْ رَحَانَا واسْتَدَارَتْ رَحَاهمُ وقد جَعلُوا كلٌ منَ الشرِّ يشْبعُ
بنُو الحَرْبِ إن نَظْفِرْ فلَسْنَا بِفُحَّشٍ ولا نحنُ منْ أظفَارِهَا نَتوَجَّعُ

ويرى كعب أن نتيجة الحرب في غزوة أحد متكافئة فقد قتلوا بقتلاهم أشراف القوم أهل اللواء، فبما يفخرون ؟ يتساءل في ردِّه على عمرو بن العاص وضرار بن الخطاب فيقول: [38](36)

أبلغ قريش وخير القول أصْدَقُهُ والصِّدقُ عند ذوي الألبابِ مقبولُ
أن قد قتلنا بقتلانا سرَاتكُمُ أهلُ اللواءِ ففيما يكثرُ القيلُ

ويردُّ حسان بن ثابت على بن الزَبَعْرَي الذي أثنى على شهداء أحد فبادله حسان إنصافا بإنصاف، يقول: [39]

ذهبت يا بن الزَبَعْرَى وقعةٌ كان منَّا الفضلُ فيها لو عَدَلْ
ولقدْ نلتُمْ ونِلنَا منكمُ وكذاكَ الحَرْبُ أحيانًا دُوَلْ

ونجد أن حسان أنصف أيضا في يوم بدر وهو يصف جيش المشركين الجرار وقد وافتهم كتائب المسلمين كأنهم أسد غاب فيقول: [40]

غداةَ كأنَّ جمعَهُمُ حرَاءٌ بَدَتْ أَرْكَانُهُ جِنحَ الغُيوبِ
فوافيْنَاهمُ منَّا بِجَمعٍ كأُسْدِ الغَابِ مِردْانٍ وشَيبِ

الإنصاف عند شعراء المشركين:

إن العصبية القبلية التي سادت المجتمع العربي، والتي ظهرت بدرجات متفاوتة من الحدَّة من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي، هي من أهم الأسباب التي

حادت بالشاعر العربي عن سلوك سبيل الإنصاف، وهذا ما نجده في قصيدة ضرار بن الخطاب التي قالها في يوم بدر مدحا وإنصافا للرسول(صلى الله عليه وسلم) والمهاجرين من صحابته وهم ألدُّ أعداءه، لا لشيء سوى لينفي عن بني النجَّار أي فضل في إلحاق الهزيمة بالمشركين، فالفضل كله للعصبة المهاجرة من المسلمين، فهم الكرام بنو الكرام، وهم الأخيار الذين لم ينجب بنو النجار أمثالهم، وهم الأطيبون الأكابر أهل الحرب ونجباؤها.

يقول ضرار بن الخطاب: [41]

عجبتُ لفخر الأوسِ والحينُ دائرٌ عليهمْ غدًا والدَّهرُ فيه بصائِرُ
وفخرُ بني النجَّارِ أنْ كان معشَرٌ أُصيبوا ببدرٍ كلُّهم ثمَّ صابرُ
فإن تكُ قتلى غودرتْ من رجالِنَا فإنّ رجالاً بعدهم سنغادرُ
فإن تظفُروا في يوم بدرٍ فإنَّما بأحْمَدَ أَمْسَى جدُّكمْ وهُوَ ظاهرُ

وبعد الثناء على الرسول (ص) يأتي الدور على الصحابة من العصبة المهاجرة فيذكرهم بأسمائهم مثنيا عليهم ومتعصبا لهم فيقول: [42]

وبالنفرِ الأخيارِ هُمْ أولياؤُه يحامُون في اللأْوَاءِ والموتُ حَاضِرُ
يُعدُّ أبو بكْرٍ وحمزةُ فيهمُ ويدعى عليٌّ وسطَ من أنتَ ذاكرُ
ويُدعى أبو حفصٍ وعثمانَ منهُمُ وسعْدٌ إذا ما كان في الحربِ حاضِرُ

ثم يصرح الشاعر بتعصبه لأهله مبرزا الصراع بين العدنانية والقحطانية فيقول: [43]

ولكن أبوهُمْ من لؤيِّ بن غالب إذا عُدَّتِ الأنسابُ كعبٌ وعامرُ
هُمُ الطاعنونَ الخيلَ في كلِّ معْرَكٍ غداةَ الهياجِ الأَطيبونَ الأَكابُر

ونجد أمثلة كثيرة لأشعار فيها إشارات للمدح والإنصاف وإن لم تكن صريحة كما نجد في شعر قتيلة بنت الحارث فرغم حزنها ورثائها لأخيها النضر الذي قتله

الرسول(صلى الله عليه وسلم) يوم بدر فإنها لا تجد غضاضة في مدحه مدحا يحمل مسحة من عتاب لأنه لم يصفح عنه وأمر بقتله.

فتقول: [44]

أمحمدٌ يا خيرَ ضِنْءَ كريمةٍ في قومِها والفحْلُ فحلٌ معْرِقُ

مَا كانَ ضرَّك لو مننت وربَّما منَّ الفتَى وهو المَغيظُ المُحنَقُ

قال ابن هشام:" فيقال والله أعلم: أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما بلغه هذا الشعر، قال: لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه."[45]•

وتمدح أخت عمرو بن عبد ود علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وهو قاتل أخيها لأنه من الفرسان الأكفاء الذي لا يعاب قتيله فقالت: [46]

لَوْ كان قَاتِلُ عَمْرِو غَيْرَ قاتِلِهِ لَقدْ بَكَيْتُ عليهِ آخرَ الأَبَدِ

لكنَّ قاتله من لا يُعَابُ به وكَانَ يُدْعَى قَديمًا بَيْضَةَ البَلدِ

ولما عيَّر حسان بن ثابت الحارث بن هشام بفراره يوم بدر أجابه الحارث معتذرا مُقرًّا بقوة المسلمين يوم بدر فلا جدوى من مقارعتهم وقد تخضَّب جواده بالدماء، ورأى في الإقدام على القتال مهلكة له فآثر السلامة لعلَّه يأخذ بثأر أحبته في يوم من الأيام، يقول: [47]

الله أعلمُ ما تركتُ قتالهُمْ حتَّى حَبَوْا مُهْري بأشْقَرَ مُزْبِدِ

وعرفتُ أنِّي إنْ أُقاتُلُ واحِدًا أُقْتلْ ولا ينْكَى عَدوِّيَ مشْهَدِي

فصَددتُ عنهمُ والأحبَّةُ فيهمُ طَمَعًا لهُمْ بعقابِ يومٍ مفسِدِ

وقد أخرست النتائج الباهرة لغزوة بدر ألسنة الشعراء المشركين وعظمت فيهم الرزية فرثوا قتلاهم ووصفوا ما لاقوه من الأهوال واعتذروا عن الفرار من الحرب.

فهذا أبو أسامة معاوية حليف بني مخزوم يصف هول المعركة وتشتت المشركين، بعد مصرع الأشراف وقد أدركتهم جحافل المسلمين واكتسحتهم كأنها موج بحر متراكب فيقول: [48]

ولَّما رأيتُ القوم خفُّوا وقد شالت نعامتهم لِنفْرِ
و أنْ تُرِكتْ سَراةُ القُوم صرعى كأنَّ خيارهم أذباحُ عِثْرْ
وكانت حَمَّةُ وافتْ حماماً ولقينا المنايا يوم بَدْرْ
نصُّد عنِ الطريقِ وأدرَكُوناَ كأنَّ زُهاءَهم غَطيَانُ بحرْ

وهذا عبد الله بن الزَبَعْرَى في يوم أُحُد ينصف شهداء المسلمين فهم الكرام الأماجد أولي الشدة والبأس فيقول: [49]

كَمْ قتلنا من كريمٍ سيِّدٍ ماجِدِ الجَدَّيْن مِقدامٍ بطلْ
صادقِ النَجدَةِ قرمٍ بارعٍ غير ملتاثٍ لدى وقع الأَسَلْ
فقتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدرٍ فاعتدَلْ

وفي يوم الفتح جمع صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أناسا بالخندمة ليقاتلوا، وقد كان حِماسُ بن قيس بن خالد أخو بني بكر يعدُّ سلاحًا قبل دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم)وكان يقول: [50]

إنْ يقبلُوا اليومَ فما لِي علَّة هذا سلاحٌ كاملٌ وألَّه
وذوغِرارين سريعِ السَّلة

ثم خرج حماس منهزما حتى دخل بيته وقال لامرأته أغلقي عليَّ بابي،قالت: فأين ما كنت تقول:

فقال منصفا جيش الفتح وفعال سرية خالد بن الوليد في ذلك اليوم : [51]

إنَّكِ لو شهدت يوم الخَنْدَمَهْ إذ فَرَّ صفوَانُ وفَرَّ عِكْرِمَهْ
وأبو يزيد قائم كالمؤتِمَهْ واستقبلتهم بالسُّيوفِ المُسْلِمَهْ
يقطعن كلَّ ساعدٍ وجُمْجُمَهْ ضربًا فلا يُسْمعُ إلَّا غمغمهْ

لهم نهيتٌ خَلفنا وهمْهَمَهْ لم تنطقي في اللوم أدنى كَلِمَهْ

ا

لأشعار المنصفة التي قيلت في فتوح صدر الإسلام:

إن المعارك التي خاضها الفاتحون الأوائل كان لها عظيم الأثر في انسياب الشعر على ألسنة الفاتحين وتفتق قرائحهم، وقد كانوا في أغلبهم شعراء مغمورين ولم يعرف لأغلبهم سابق عهد بالشعر ونجد أن "معظم أشعار الفتوح مجهول قائلوها، وتتميز بأنها مقطعات صغيرة كانت استجابة عاطفية سريعة لأصحابها، سجل الشعراء فيها وقائع المعارك الفاصلة، والأسلحة التي استخدمها الفرس والروم في قتالهم ووصفوا المعاقل والحصون والأفيال" [52]

فهذا بشر بن ربيعة يصف ما لاقاه المسلمون من أهوال في معركة القادسية، يقول: [53]

تذكَّرْ هداك الله وقعَ سُيُوفنا بباب قديس والمكرُّ عسيرُ

عشيَّة ودَّ القُوم لو أن بعضهم يُعارُ جَنَاحيْ طائرٍ فيطيرُ

إذا ما فرغنا من قراع كتيبةٍ دلفنا لأخرى كالجبال تسيرُ

ترى القوم فيها واجمين كأنّهم جِمالٌ بأحمالٍ لهنَّ زفيرُ

ورغم أن القعقاع يفخر ببلائه في الوقائع الحربية مع الفرس و الروم فإنه لا يبخس أعداءه حقَّهم بل يصور لنا شدَّة بأسهم وحفاظهم وحمايتهم لبلادهم يقول: [54]

ولمْ أرَ قومًا مثل الذين رأيتهم على ولجات البرِّ أحمى وأنجبا

وأَقْتلُ للروَّاس في كل مجمع إذا ضعضعَ الدهر الجموع وكبكبَا

ولا نجد وصفا أنصف وأصدق من أبيات القعقاع بن عمرو التميمي وهو يصور بسالة المقاومين من العرب الذين حشدهم الفرس لقتال المسلمين، ولعَلَّ التعصب للعرق العربي هو الذي بعث في نفس الشاعر هذا الإعجاب، فقد كان المسلمون

كارهين لحرب العرب وكان جلُّ اهتمامهم القضاء على دولة فارس والتمكين للدين الجديد.

يعترف عاصم بن عمرو التميمي لأهل ألِّيس وأمغيشيا بقدرتهم وثباتهم في الحرب، فهُم الأسود الذين عركتهم الحرب فاستعصى أمرهم على الجحاجحة الكبار، يقول: [55]

لَقينَا يومَ أُلَّيسَ وأمغِي ويوم المَقرِّ آسادَ النهارِ
فَلمْ أرَ مثلها فضلاتُ حرْبٍ أَشدُّ على الجحاجحةِ الكبارِ

وقد لاقى المسلمون يوم ألِّيس مقاومة شديدة حتى صلى خالد بن الوليد بالمسلمين صلاة الخوف، وعلى كثرة الوقائع المظفرة التي قادها خالد فقد أنصف أيضا أهل أُلِّيس وشهد لهم بالشجاعة والحفاظ، وشدة البأس.

كما أثنى عاصم بن عمرو على أهل المَقرِّ فقال: [56]

ألمْ ترَنا غداة المقِّر جئنا بأنهارٍ وساكنها جهارًا
قتلناهم بها ثم أنكفأنا إلى يمِّ الفرات بما استجارا
لقينا من بني الأحرار فيها فوارس ما يريدون الفرارا

وتتصل أيام المسلمين المظفرة في ألِّيس وأمغيشيا، وعين التمر، ودومة الجندل، ونهاوند والرَّي وغيرها من الوقائع" لكن هذه الشعوب والبلدان لم تذعن إلَّا بعد خطوب حربية شديدة وبعد أحداث عسكرية جسام، فقد ظلت تقاوم حتى قهرتها جيوش المسلمين واضطرتها إلى الإذعان والدخول في دين الإسلام."[57]

وفي أيام القادسية يشيد الشعراء ببلاء المسلمين، واستبسالهم في الحرب و ما لاقوا من معاناة في سبيل تحقيق النصر يقول أبو محجن: [58]

لَّما رأينا خيلًا محجَّلةً وقوم بغي في محفل لجب
لما التقينا مات الظلام ودا رالموت دور الرحى على القطب
فكلنا يستكيص صاحبه عن نفسه، والنفوس في كرب [59]

إن حملوا لم نرم مواضعنا و إن حملنا جثوا على الركب

وقال عروة بن زيد الخيل في يوم القادسية أيضًا: [60]

وأيقنتُ يومَ الديلميين أنني متَى ينصَرفْ وجهي عن القومِ يُهزَمُوا

فَمَا رمتُ حتى مزَّقوا برمَاحِهِمْ قبائي وحتى بلَّ أقمصي الدَّمُ

محافظةً أني أمرؤ ذو حفيظة إذا لمْ أجِدْ مُسْتأخِرًا أتقدَّمُ

ويصور أبو جيد النهاية المأساوية ليزدجرد ملك الفرس ورغم افتخاره بمقتله نجده في البيت الثاني يشيد بقوة الأعداء فلا يبخسهم حقهم من الثناء، فقد لاقى المسلمون أهوالا عظيمة في سبيل القضاء على آخر ملوك الأسرة الساسانية الذي وقف معه أهل فارس في كل موقعة مقاتلين باستماتة،

قال أبو جيد: [61]

ونحن قتلناَ يزْدَجْرَدَ ببعجة من الُّرعب إذ ولَّى الفرار وغارا

غداة لقيناهم بمرو تخالهم نمورا على تلك الجبال ونارا

لقد كانت أيام الفتح الإسلامي وقائع مظفرة كتب فيها النصر دائما للمسلمين لكننا نجد الاستثناء في يوم الجسر، حيث دارت الدائرة على المسلمين ولم يصمدوا أمام الفرس فاستشهد خيار القوم وأشرافهم وكانت نكبة عظيمة أخرست ألسنة الشعراء، يقول فيها أبو محجن: [62]

أنَّى تسرَّت نحونا أم يوسف ومن دون مسراها فيافٍ مجاهلُ

إلَى فتية بالطّف نيلَتْ سراتهم وغُودِرَ أفرَاسٌ لَهمْ وَرَوَاحِلُ

وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِيهم غَيْرَ أنَّهَا إلى أجلٍ لَمْ يَأْتِهَا وهوَ عَاجِلُ

ومارُمتُ حتَّى خرّقوا برمَاحِهم ثِيَابِي وجَادَتْ بالدِّماءِ الأباجِلُ

وحتَّى رأيتُ مُهرتي مزْوَئرَّةٌ لدى الفيل يدمى نحرها والشواكلُ

ومَا رُحتُ حتَّى كُنتُ آخرَ رَائحٍ وصُرِّع حَوْلِي الصَالِحُونَ الأَمَاثِلُ

نرى أنه في سعي الشاعر لالتماس العذر لنفسه - وقد جاد بها فأخطأه الأجل- لا يحيد عن إنصاف خصمه وهو من باب الإنصاف في الهزيمة فالعدوُّ مقدام قتل الأشراف والقادة وهو في زحفه يبيد كل صامد مستبسل، ويعترف الشاعر أن المنية أخطأته بعد أن أثخن بالجراح ولم تصمد مهرته أمام الفيل، فما غادر حتى كان آخر مقاتل وقد صُرِّع حوله الفوارس الأبطال.

خاتمة

إن القصائد والمقطعات التي شاعت عند شعراء هذيل والشعراء الفرسان كأوس بن حجر، وعمرو بن معد يكرب والتي تحدثت عن فرارهم من وجه العدو لا نجد لها أثرا في شعر الفتوح لأن التولّي يوم الزحف من أكبر الكبائر فلا يدبر الفارس إلاَّ متحيزا لقتال.

وقد حولت الروح الإسلامية الجديدة المسلمين إلى أسود لا تخشى الموت فكانت سلسلة الانتصارات الكاسحة وانشغال الفرسان بالغزو والفتح سببا مباشرا في قلة الشعر بصفة عامة و شعر الإنصاف بصفة خاصة، إذا استثنينا بعض المقطعات والأبيات التي وصفت الأعداء مع الثناء على كرم المحتدِّ والصولة في ميادين القتال فهم عند أبي جيد نمور الجبال، وعند عاصم بن عمرو الفوارس الشجعان الذين يأبون الفرار، وهم الكرام بنو الأحرار.

وكان انتصار المسلمين في جلِّ الوقائع التي اشتركوا فيها على جبهتي العراق والشام – ماعدا وقعة الجسر- كانت وقائع مظفرة عادت فيها الغلبة للمسلمين أهل الإيمان بعد اجتماع الكلمة، واليقين الذي زوَّدتهم به روح الإسلام، هذه الانتصارات لم تَحِدْ بشعراء الفتح عن تقرير الحقائق ووصف الوقائع بصدق كبير.

إذا كان الإنصاف في الجاهلية، يصدر عن روح متشبعة بالقيم الحميدة المعدودة في ذلك العصر كالنجدة، والوفاء، والكرم، فإن الطابع الجديد لشعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام والعصر الأموي قد تأثر بالدين الجديد الذي أحدث

ثورة في القيم وغيَّر الكثير من المفاهيم الجاهلية من ظلم واستبداد وطغيان وباطل إلى عدل وسماحة وحق وفضيلة.

كما نجد أن الشعراء تخففوا من المقدمات التقليدية وكانت معظم أشعارهم مقطعات يفرغ فيها الشاعر أحاسيسه حسب ما يمليه تسارع الحدث فالشاعر يدخل مباشرة في صلب الموضوع لأن الموقف يفرض عليه تجنب التمهيد واللجوء إلى الرمز.

الهوامش:

[1] العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، إحسان النص، دار اليقظة العربية، بيروت، دط، دت، ص373.

[2] شعر الحرب في العصر الجاهلي، علي الجندي، مكتبة الجامعة العربية، ط3 ،1966، ص199-200.

[3] لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير،محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف القاهرة، ط1، باب النون، نَصَفَ، المجلد السادس ص4444.

[4] خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادربن عمر البغدادي،تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997، ج8، ص 326-327.

[5] ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة،1998م، ط7، ج4، ص23.

"وقد أدركت رواة المسجديين والمِربديين من لم يرو أشعار المجانين .....والأشعار المنصفة، فإنهم كانوا لا يعدُّونه من الرواة"

[6] ينظر: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديِّيْن، تحقيق محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1952، ج1، ص 149- 153.

[7] معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص391،392.

[8] طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، شرحه محمود شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1952،ص121.

[9] تاريخ الأدب العربي، علي الجندي، دار التراث للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ط1، 1991،ص433.

[10] الأدب الجاهلي ، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، غازي طليمات، عرفان الأشقر، دار الإرشاد، حمص، سوريا، ط1، 1992، ص204،205.

[11] جماليات الشعر العربي، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، هلال جهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2008، ص370، 371.

[12] شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري، حمُّودي نوري القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1،1986م،ص 6.

[13] المنصفات، عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1967، ص آب.

[14] المفضليات، أبي العباس المفضل الضبي، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت لبنان، ط1، 1998،ص 183، 184.

[15] الأدب الجاهلي ، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، غازي طليمات، عرفان الأشقر، ص 149-150

[16] الذخائر والعبقريات معجم ثقافي جامع، عبد الرحمان البرقوقي، مكتبة الثقافة الدينية ،ج1، ص46.

[17] الحماسة، لأبي عبادة البحتري، وضع حواشيه محمود رضوان ديوب، دار الكتب العلمية، ط1، 1999، ص72.8

[18] شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، للمرزوقي، علق عليه فريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص476، 478.

[19] م نفسه، ص477.

[20] م نفسه، ص 478.

[21] الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديِّيْن، تحقيق محمد يوسف،ج1، ص6.

[22] شرح المعلقات السبع للزوزني، دار الإرشاد والنشر، سوريا، 2005، ص 173.

[23] م نفسه ص171.

[24] ديوان عنترة، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، 1964،ص47

[25] ديوان شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، أحمد كمال زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1969.

[26] ينظر: البطولة في الشعر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف،القاهرة، ط2، ص52.

[27] الإسلام والشعر، سامي مكي العاني، سلسلة عالم المعرفة، 1996، ص202.

[28] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا بيروت، 2012م، ج1، ص18.

• لم أجد لهذا القول أثرا في كتب الحديث.

[29] سورة المائدة، آية 8.

[30] ينظر: تفسير القرآن الكريم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999، ج3، ص62.

[31] سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لابن هشام، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،1973، ج2، ص377-378.

[32] كتاب الصناعتين الكتابة والشعر،أبو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986،ج1،ص138.

[33] شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1980،ص70، 73.

[34] ديوان كعب بن مالك الأنصاري، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد،1966، ص175.

[35] م نفسه، ص174، 175 .

[36] م نفسه، ص 225، 226.

[37] م نفسه، ص 227.

[38] م نفسه، ص 255.

[39] سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لابن هشام،تحقيق محي الدين عبد الحميد،ج3، ص98-100.

[40] شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، عبد الرحمن البرقوقي، ص70-73.

[41] سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لابن هشام،تحقيق محي الدين عبد الحميد،ج2، ص377-378.

[42] م نفسه، ص377.

[43] م نفسه، ص 378.

[44] م نفسه، ص385.

[45] البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1،دت، ج3، ص321.

• لم أجد لهذا القول أثرا في كتب الحديث.

[46] العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط5، ج2، ص189.

[47] سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لابن هشام،تحقيق محي الدين عبد الحميد،ج2،ص421.

[48] م نفسه، ج2،ص408.

[49] م نفسه ،ج3، ص96- 97.

[50] م نفسه ،ج4، ص27.

[51] م نفسه ، ج4، ص27-28.

[52] ينظر، الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، محمد مصطفى هدارة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1995،ص 158.

[53] الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب المصرية،ط1، 1959، ج15، ص 243.

[54] معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت،1977، ص383.

[55] شعراء إسلاميون، نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط2، 1984،ص121-122.

[56] م نفسه، ص61.

[57] البطولة في الشعر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة،ط2، دت، ص52.

[58] خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادربن عمر البغدادي،تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997،ج8، ص413.

[59] يستكيص: يقال كاص ، يكيص، كيصا، كع وجبن وضعف.

[60] شعراء إسلاميون، نوري حمودي القيسي، ص32.

[61] نفسه، ص95-96.

[62] ديوان أبي محجن، شرح أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، ص65-66.

- شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، النعمان عبد المتعال القاضي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة،1965،ص130.